الغربة النفسية فى شعر العقاد

اعداد

الدكتور / رزق محمد داود

مدرس الأدب والنقد فى كلية اللغة العربية بدمنهور

ليس من شك فى أن جماعة الديوان ، تعد من طلائع الاتجاه الرومانتيكى فى أدبنا الحديث ، والمعروف أن الرومانتكيين عموما قد دعوا الى الخلق الفطرى ، والعودة الى الطبيعة الحانية ، التى تتوفر فيها السعادة لكل أبناء الجنس البشرى ، ومن هذا الخلق الفطرى وتلك الطبيعة الحانية ، استمدوا عواطفهم الانسانية التى ترجع الى ما فطروا عليه من الهام •

وقد أراد الرومانتيكيون أن يكون الوجود أكثر استجابة لمعاناة الانسان ، وأن يكون الانسان اله حاكم ذاته ، وسيد قدره ، وأن يكون غاية وليس وسيلة ، تسيره الأقدار وترغمه الحتمية رغبات الوجود الغامضة،لذلك كانوا متشائمين رافضين ، لا يرضيهم شىء ، ولا يقنعون بشىء ، ومن ثم فشلوا فى تحقيق النجاح الاجتماعى لأنهم كانوا يحتقرون كل شىء ، حتى أبناء مجتمعهم بل المجتمع ذاته ومن هنا شعروا بالغربة النفسية فيه •

والعقاد ــ رائد جماعة الديوان(١) ــ تأصلت فيه هذه النزعة منذ صغره ، فصارت جزءا من نسيج مشاعره وعواطفه ، فضلا عن سلوكه

---

(١) يرى بعض النقاد أن عبد الرحمن شكرى هو رائد هذه الجماعة =

وتصرفاته ، وبخاصة قبل أن يلتحم بأبناء الشعب مدافعا عن حقوقهم فى مجلس النواب ، وفى منبر الصحافة ، ففى تلك المرحلة كمن شعوره النفسى بالاغتراب فى أغوار نفسه البعيدة ، نظرا لظروفه السياسية التى كان يعيشها آنذاك .

والمعروف عن الرجل انه لم يتعلم تعليما رسميا بعد حصوله على شهادة اتمام الدراسة الابتدائية(٢) ، ولكنه استطاع بمجهود الخاص، وبقدراته الذاتية ، وبما فطر عليه من نزعة التحدى ، والتى كانت اثرا من آثار النشأة الاسوانية ، أن يثقف نفسه فى مختلف فروع العلم والثقافة بطريقة أهلته لان يتربع على قمة حياتنا الثقافية ، لأكثر من نصف قرن ، وهذه السمة التى لا يكاد يشرك العقاد فيها أحد ، غرست فى يقينه نزعة التحدى فى وقت تفاخر فيه معاصروه بالألقاب والرتب ، وتباهوا بما وصلوا اليه من الدرجات العلمية ، الأمر الذى أدى الى ما يشبه رد الفعل لدى العقاد ، فبالغ فى الاعتزاز بقيمه ،

ومنهم د. محمد خفاجى فى كتابه الأدب العربى الحديث ومدارسه ص ٤٦، د. محمد منصور فى كتابه الشعر المصرى بعد شوقى الحلقة الأولى ص٤٩، ص ٩١ ، ١٢١ ، د. ابراهيم أبو الخشب فى كتابه تاريخ الأدب العربى فى العصر الحاضر ص ٢١٨ ، هذا بينما يرى فريق آخر أن العقاد هو رائد الجماعة ومنهم د. عبد الحى دياب فى كتابه عباس العقاد ناقدا ص ١٢٥ ، د. شوقى ضيف فى كتابه الأدب العربى المعاصر فى مصر ص٦٨. د. أحمد هيكل فى كتابه تطور الأدب الحديث فى مصر ٣١ ، ١٥٦ ، د. نعمات فؤاد فى قمم أدبية ص ٩٦ والأستاذ محمد طاهر الجبلاوى فى صحبة العقاد ص ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ وبعد التحقيق والتمحيص نرى رأى الفريق الثانى لقوة حججهم .

(٢) انظر « أنا » للعقاد ط دار الهلال ص ٣٠ .

وغالى فى الدفاع عن مبادئه ، وأسرف فى الذود عن كرامته ، وبطش كل من فكر فى الحوم حول عرينه .

وقد صور ذلك شعرا فى قوله :

أنا حاطم الأصـــنام والقبب
ألحقـت منهـا الرأس بالذنب
فى أمـة الألقاب أسـبقهم
سـعيا بلا نعـت ولا لقب
فى أمـة الأمـوال أتركهم
بعـدى بلا مـال ولا نشب
فى أمـة الأنسـاب أنشىء لى
نسـبا من العليـاء والأدب(٣)

من هنا شعر العقاد بالغربة النفسية ، وخاصة بعد أن اتسعت الفجوة بين آماله وطموحه وبين الواقع المضى الذى كانت تعيشه مصر فى عصره « ١٨٨٩ ــ ١٩٦٤ » وهو عصر وصفه العقاد أبلغ وصف فى قوله : « انه عصر طبيعته القلق والتردد بين ماض عتيق ، ومستقبل مريب ، وقد بعدت المسافة فيه بين اعتقاد النـاس فيما يجب أن يكون وبين ما هو كائن فغشيتهم الغاشية ، والشاعر بجبلته أوسع من سائر الناس خيالا ، فالمثل الأعلى ، أرفع فى ذهنه منه فى أذهان عامة الناس، وهو ألطفهم حسا ، فألمه أشد من ألمهم ، وانما يكون الألم على قدر بعد البون بين المنتظر وبين ما هو كائن فلا جـرم ان كان الشـاعر أفطن الناس الى النقص ، وأكثرهم سخطا عليه »(٤) .

---

(٣) ديوان العقاد « ما بعد البعد » ط دار المعارف ص ٢٩ .

(٤) مقدمة جـ ١ من ديوان المـازنى ص ١٧ ط المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب .

وقد نقم العقاد على المجتمع ، ونقد أساليب الحيـاة فيه ، وأدته الغربة النفسية الى العزلة والانطواء وهو أصلا مفطور على العزلـة ، لأسباب يرجع بعضها الى الوراثة،وبعضها الى الطفولة الباكرة،وبعضها الى تجارب الحياة(٥) ، لذلك استغرقت الكتب حياته ما بين كتاب يقرؤه أو كتاب يؤلفه ، أو قصيدة يبدعها .

وقد أحس العقاد ذلك فى نفسه ، فاعتذر عنه فى أسلوب رقيق اذ يقول : « وليس معنى العزلة أننى أحارب الناس ، او أننى لا أبادلهم العاطفة والشـعور ، فاننى أحب مسالمة الناس جهـدى ، ولا أستبيح لنفسى ان أبدأهم بما يسوء ، ولكننى لا أبيح لأحد أن يستخف بالاساءة الى »(٦) .

وقد يتعدى الأمر من ألفته الاخوان الى ألفته غيرهم من الأحياء والأشياء ، ودواوينه تغص بالنماذج التطبيقية على تأصـل هذه النزعة فيه ، فقد بكى كلبه(٧) ، وتعاطف مع كتبه(٨) ، وغنى للطائر المصرى غناء خالدا ، بل أهداه ديوانا كاملا هو « هدية الكروان » .

وقد أخذ الاغتراب النفسى لدى العقـاد أكثر من مظهر ، فهناك الاغتراب الزمنى الذى يكمن فى احساسه بأنه لا يصلح لهذا الزمن ، ونقمته عليه من أجل النفوس المقيمـة فيه ، لأنه يعـاف مقامه بينهم ، ولا يتمنى الخلود فيهم ويعـد العيش بينهم سـجنا ينفر الشاعر من الوجود كله :

نفـوس أعـاف مقامى بهـا
أأخلد فيهـا ؟ لبئس الخلود !

---

(٥) « أنا » للعقاد ص ٣٦ ط دار الهلال .
(٦) مجلة الرسالة العدد الصادر فى ١٩٤٧/١١/١٧م
(٧،٨) انظر خمسة دواوين للعقاد ص ١٧٦ ، ١٨٥ ، ١٧٠ وديوان العقاد ص ١٣١ .

وسجن أعاف وجودى به
أليس كفيلا ببغض الوجود
قرب خلود كقيد السجين
ونسيان قوم كفك القيود(٩)

ونلمح غربته فى الحياة ، وأثر الزمن فى سلوكه ، وأن جفاءه وغلظته أثر من فعال الناس معه ، وانعكاس لصورة الحياة لديه فى قوله :

اذا استصعبت نفسى وضاقت فجاجها
ولاحت لمرأى العين كالجبل الوعر
فلا تنكروا منها جفاء ووحشة
ولا ترجموها بالقبيح من الكبر
فتلك ظلال الناس فيها ودونها
طبائع كالماء النمير اذا يجرى
ولولا صفاء الماء ما علقت به
مشابه من أوعار شطآنه الغبر
وان جشأت نفسى وصابت سماؤها
وغامت دياجيها على الأنجم الزهر
فمن أرضكم ضوضاؤها وقتامها
ومن صوبكم ذاك الغمام الذى يسرى
تليكم غواشيها الغضاب وفوقها
شموس تميط الليل عن طلعة الفجر
وانا لمرآة لما فى زماننا
نحدث عنه حيث ندرى ولا ندرى

---

(٩) خمسة دواوين للعقاد ص ١٠٢ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب

تفيض لنـــا أفراحنـــا من صـــدورنا
وما فاضت الدنيا لنا بسوى الشر(١٠)

ويبلغ العقاد قمة نقمته على زمنه ، بعد أن غدا الأسافل يصعدون، وأهل القيم يهبطون وتوسل ذوو المناصب اليها بالخداع ، والحيل الرخيصة ، وانعكست قيم الأشياء :

فشـــت الجهـــالة واستفاض المنكر
فالحق يهمس والضـــلالة تجهـــر
والصـــدق يسرى فى الظـــلام ملثما
ويسـير فى الصبح الرياء فيســـفر
انا لفـــى زمن كـــأن كبـــاره
بســوى الكبائر شـــأنها لا يكبـــر
بئس الزمـــان لقد حســـبت هـــواءه
دنســـا وأن بحاره لا تطهـــر(١١)

وهذا الاتجاه هو ذات الاتجاه الرومانتيكى حيث « ان الصلة بين الرومانتكيين وعصرهم صلة صراع وجهاد ، أو صلة سخط وغضب ، وهى صلة الشعور القوى الثائر المتطرف الذى ينشد مثالا ، ومن شأن هذا المثال أن تنعكس صـورته فى الأدب على أنه صـورة لما ينبغى أن يكون ، لا لمـا هو كائن ، فهذه الصـورة فى تعارض مع ما عليه المجتمع الذى نشأت فيه »(١٢) .

أما الاغتراب المكانى لدى العقاد فيتمثل فى احساسه بالفرار من بيئته الى بيئة أخرى تحيا فيها روحه ، ويحلق فى أجوائها بخياله،ويجد

---

(١٠) ديوان العقاد ص ٢٦٠ .
(١١) ديوان العقاد ص ١٣١
(١٢) الرمانتيكية د. محمد غنيمى هلال ط دار نهضة مصر ص ٤٠

فيها متعته الفكرية ، وفى رأى العقاد أن القرابة الفكـرية أهم وأولى من القرابة البيئية والمكانية حينما يذهب الى أنه « لو كانت هناك نفس فى المريخ خطر فى ضميرها مثل الذى يخطر فى ضميره ، لكانت ألصق به وأوفى رحما ممن يلونه ويجاورونه على فرقة فى الرأى والاحساس ، ولو أن قائلا جمعنى به الفكر والهوى لما كان غريبا عنى وان فرقتنـا لغة وباعد بيننا زمان وموطن »(١٣) .

والعقاد يتفق فى هذه النظرة مع المفكر الرومانتيكى « ستا ندال » الذى يقـول : ان المـوطن الحـق هو الذى تلتقـى فيه بكثـير ممن يشبهونك »(١٤) والمفكر الرومانتيكى « جيراردى نرفال » الذى يقول : « لكل فنان وطن مثالى غالبا ما يكون بعيدا من وطنـه الأصلى ترتاح اليه موهبته الفنية »(١٥) .

ومن مظاهر الاغتراب الزمانى والمكانى لدى العقاد ، ترفعه على جمهور الناس ، وهى سمة تأصلت فى نفسيته منذ صـغره ، اذ كان يحس فى نفسه عظمة لا يجـد لها ظلا فى سواه منـذ رفض أن يلبس البنطلون القصير ـ كزملائه ـ فى حصة التربية الرياضية وهو طفـل بالمدرسة الابتدائية بأسوان ، رغم أنه كان أصغرهم سـنا وأطـولهم قـامة(١٦) .

ونمى هذا الشعور لديه ، مع نمو مداركه ومشاعره،وأضناه ما جلبه عليه حبه الناس فقد كلف بحبهم زمنا الى أن صارت غاية أمانيـه أن يبغضوه ، لأنهم لا يعطفون الا على كل منحـدر فى الحس والمعنى ،

---

(١٣) الغربال ـ ميخائيل نعيمة ط ١٢ (١٩٨١) بيروت ص ٦ .

(١٤،١٥) الرومانتيكية ب محمد غنيمى هلال ط دار نهضة مصر ص ١٢١ ، ٦٨ .

(١٦) أنا للعقاد ط دار الهلال ص ١٢٢ .

ويعجزهم التطلع الى القمم العالية ، وكم نسج لنفسه من فضائلهم حتى غدا ينظر الى أصغرهم ، شأن الطبيعة فى قياس الأشياء ، ومن ثم فهو يحتقر أرضا خلت من أنداده ، وموطنا لا يعمره مثاله :

وكم كلفت بحب الناس لى زمنا
فاليوم بغضهم من خير آمالى
فالناس تحنو على الوادى ويعجزهم
جهد التطلع عن ذى القمة العالى
وكم نسجت لنفسى من فضائلهم
نسجا على الزرع من هون واجلال
فاليوم أكبرهم عندى كأصغرهم
ان الطبيعة مقياسى ومكيالى
انى لأصغر أرضا ليس يعمرها
من الخلائق أندادى وأمثالى(١٧)

ويؤكد هذه الفكرة فى موطن آخر حيث يرى أن شقاء العظماء راجع الى افتقادهم الأشباه والنظائر ، أما الأصاغر فهم أشباه كثيرون ، والناس يتوددون لمن شابههم فاذا علا عنهم رجموه ، وان سفل احتقروه ، وعلى ذوى النبوغ توطين أنفسهم على العزلة والشقاء :

ان الشقى الذى لا صنو يشبهه
وللأصاغر أشباه وأمثال
من شابه الناس سرته مودتهم
ومن علا عنهم ساءت به الحال

---

(١٧) ديوان العقاد ص ١١٣ .

فاهنأ بمجدك اذ تشقى بعزلته
وليحظ بالصفو أوغاد وجهال(١٨)

وهذا الشعور مستفاد من العواطف الرومانتيكية أيضا اذ أن الفرد لديهم يكن دائما فريسة ألم مرير بسبب الجفوة بينه وبين مجتمع لا يقدر ما فيه من نبل الاحساس ونتيجة انهيار آماله الواسعة ، وتعذر ظفره بالمثال المنشود ، ولذا كان الحزن طابع الرومانتيكية ، وهو حزن طابع الرومانتيكية ، وهو حزن يدل على عزلتهم الروحية ونفورهم من أدواء المجتمع(١٩) .

ويؤكد العقاد هذا حينما يذهب الى أن طالب الحق عليه أن يوطن نفسه على احتمال المكاره لأن الحق والأمن لا يجتمعان ، فاما أن تبحث عن المجد معرضا نفسك لأخطاره ، واما أن تقبع فى الهوان آمنا .

هما سبيلان من يبغ السلامة لا
يأسف لعى الحق أو يحلم برؤياه
ومن بغى الحق فى الدنيا فلا أسف
على السلامة ان خانته دنياه
قد يهجر الأمن من ذلوا ومن وهنوا
وما تفرق قط الهول والجاه
فاختر لنفسك اما المجد فى خطر
أو الهوان وقد تشقى ببلواه
وما اختيارك الا ما خلقت له
ان الطبائع ما ترضاه نرضاه(٢٠)

---

(١٨) السابق ص ١١٢ .
(١٩) الرومانتيكية د. محمد غنيمى هلال ص ٤٣ .
(٢٠) خمسة دواوين للعقاد ص ٣٢١ وانظر « حياة الأمن » الديوان ص ٢١١ .

وقد وصل هذا الشعور الى قمته فى نفس العقاد ، حينما اشترع للعظماء قانون يحاسبون بمقتضاه لا ينسحب على العامة ، لأن لكل مقياسه ومعياره اذ يقول :

لا تلح ذا بأس وذا همة
على ذنوب العصبة الغلب
فليس مقياسك بمقياسهم
ولا هم مثلك فى مأرب(٢١)

ويعلل العقاد ذلك بأن الليث لا يوثق بالحبالة التى تنصب للثعلب، ومن ثم فهو يطلب عدل الناس لا عدل الموازين التى لا تفرق بين الغث والسمين(٢٢) .

انا نريد اذا ما الظلم حاق بنا
عدل الأناسى لا عدل الموازين
عدل الموازين ظلم حين تنصبها
على المساواة بين الحر والدون
ما فرقت كفة الميزان أو عدلت
بين الحلى وأحجار الطواحين

ولما كان العقاد يستشعر العظمة ، فى مجتمع عزت فيه العظمة والعظماء ، فقد تضاعف شعوره بالغربة بعد البون بينه وبين معاصريه، وهو بون يستحيل معه الالتقاء .

عرفت نفوسكم وعرفت نفسى
فليس الى التعارف من سبيل

---

(٢١) ديوان العقاد ص ١٢٤ .
(٢٢) خمسة دواوين للعقاد ص ١٢٤ .

أمـــور من بديهـــاتى وحـــدسى
حســـبتم صـــدقها كالمســـتحيل
جليـــل الأمـــر عنـــدكم حقـــير
وأحقـــره أجـــل من الجليـــل
فلست مبـــاليا منكـــم بـــذم
ولا آسى عـــلى ظـــن جميـــل(٢٣)

وقد ترتب على ترفع العقاد على الناس ، واحتقاره سلوكهم وتفاهة ما لديهم من بواعث وقيم ، أمر آخـر أعنف من الترفع وهو الهجـاء الاجتماعى وهو هنا لا يحتقر الناس بتعداد مثالبهم الا ليوقظهم حتى يتخلصوا من سلبياتهم ، لأنه وجه هذا النقـد فى الأغلب الأعـم الى الشباب ، بوصفهم رجال المستقبل ومناط الأمل فى اصلاح الأمة :

كم اذا أعـاشر من صـــحبى وأعدائى
من ليس يعقـــل آمـــالى وآرائى
قـــوم على كثب منى ويفصـــلنى
عنهم مســـافة بين الليث والشـــاء
لو كان يفرقنـــا بعـــد الطـــلاب لمـــا
كنـــا وكانوا سوى نجـــم وبوغـــاء
هم الرجـــال كما قـــالوا وليس لهم
من الرجـــولة الا فضـــل أســـماء
ويلى على مصر قد أمست وليس لهـــا
ســـوى اعتـــزاز منـــوط بالأذلاء

---

(٢٣) ديوان « ما بعد البعد » للعقاد ط دار المعارف ص ٢٧ .

قـد أكملـوا النقص موفورا فلا عجب
ألا يضـيقوا بتنقيص الأجـلاء(٢٤)

ويستطرد العقاد فى وصف سلبيات الشباب المصرى ، وهو يضع نصب عينيه سوء المصير الذى ينتظر مصر من شباب هذه أخلاقه وتلك قيمه وسلوكه .

وليس فى هذا الكلام تعال بقدر ما فيه من أسف وعطف عليهم ، والرومانتيكى عندما يتعالى على الناس ، لا يعنى أنه عدو لهم بوصفهم من الناس ، لأن شغله الشاغل هو العطف على مظلوميهم والثـورة من أجلهم ، ولكن العبقرية لا يلائمها أن تنغمس فى سواد الناس(٢٥) .

وفى هذا المجال نرى العقاد يحارب وسائل الخداع والتمـويه ، وأساليب المرائين والمنافقـين :

سـحقا لهاتيك الوجـوه فانهـا
كـذابة لا تحسـن التمويها
حسنت ولو نقلت صـفات نفوسـها
لرأيت أقبح ما رأيت وجوهـا(٢٦)

وفى موطن آخر :

ليس أضـنى لفؤادى من عجـوز تصـابى
ودمـيم يتحـالى وعلـيم يتغـابى
وجهـول يملأ الأر ض سؤالا وجوابا(٢٧)

---

(٢٤) ديوان العقاد ص ١٥٨ .
(٢٥) انظر الرومانتيكية د. محمد غنيمى هلال ص ٤٧ .
(٢٦) ديوان العقاد ص ٦٩ .
(٢٧) ديوان العقاد ص ١١٣ .

وله فى هذا المجال كثير من القصائد والمقطوعات مثل : « صديق غاش »(٢٨) ، « الشيء من غير معدنه »(٢٩) ، « ذات وجوه »(٣٠) ، « سر فى طريقك »(٣١) ، « زماننا »(٣٢) وغيرها .

وقد اضطره ذلك أن يتلون ــ أحيانا مع المتلونين متى كان فى ذلك حكمة ، متبعا طريقة زهير بن أبى سلمى فى قوله :

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنياب ويطأ بمنسم(٣٣)

حيث يقول العقاد :

در مع الناس كيسا كغبى
هكذا الكيسون كانوا قديما
وتجاهل فليس من يجهل الجهـ
ـل حريا بأن يسمى عليما
واذا المرء كان بالحمق يحظى
فمن الحمق أن تكون حكيما(٣٤)

كما استدعاه ذلك أن يلؤم أحيانا أخرى ، ليقى نفسه لؤم الأعداء الذين يسرهم أن يكون كريما اذ يقول تحت عنوان « اللؤم سلاح » .

يسر صديقى أن يرانى مبرءا
من اللؤم موسوما بكل سماح

---

(٢٨) ديوان العقاد ص ١١٢ .
(٢٩، ٣٢) ديوان العقاد ص ١١٣ .
(٣٠) خمسة دواوين للعقاد ص ٣١٢ .
(٣١) خمسة دواوين للعقاد ص ٣١٨ .
(٣٣) شرح المعلقات السبع للزوزنى ص ١٠٣ .
(٣٤) ديوان العقاد ص ١٠٤ .

كمـا سـر خصـما أن يراك أمامـه
تتـازله حـربا بغير سـلاح
هو اللـؤم سـيف للئيم وجنـة
من النـاس والدنيا مجـال كفـاح
فواها لنفسى فى المجـال مجـردا
أضـعت مجنى بينهم ورمـاحى(٣٥)

ويقول فى مقطوعته « بمن نثق » التى تدور معانيها فى هذا الفلك :

ثـق بالرذيلـة تلقهـا
فى كل حـين حاضـره
ان الفضـيلة قلمـا
تلقـاك الا عـابره
حتى الأفاضـل عرضـة
لهـوى الهنـات النـادرة
مـا كل يـوم يرتجـى
عطف النفـوس الطـاهرة
ومـن النـوادر أن تـرى
عنـد التعطـف قـادرة
مـن لـم يدر فى دهـره
دارت عليـه الـدائرة(٣٦)

والخيانة فى رأى العقاد متأصلة فى الجنس البشرى كله :

قلت لعمـرو : خاننى خـالد !
وخاننى عمرو فمـاذا أقول ؟

---

(٣٥) ديوان العقاد ص ٨١ .
(٣٦) خمسة دواوين للعقاد ص ٣٢١ .

أبلغتهـا زيدا فمـا زادنى
عن صاحبيه فاحتوانى الذهول
ناجيتنى سرا وبى خيفـــة
ممن أناجيه ففيه فضـــول
ثق من خيـانات بنى آدم
اذن وقل أنتم ثقـات عـدول
لا تشك هـذا عند هـذا ففى
هذا وهذا عنصر لا يحول
كل بنى الدنيـا ومن بينهم
أنت فروع جمعتها الأصول(٣٧)

ومن ثم يرى العقـاد أن أقصر الطرق للسـلامة من النـاس هو الاستغناء عنهم لأن تبـادل اللوم والعتاب بين الناس وليد افتقارهم لبعض :

أنـا لا ألـوم ولا ألام
حسـبى من الناس السـلام
ليس العتـاب بمصـلح
خـللا توارثـه الأنـام
أنـا ان غنيت عن الأنـا
م فقـد غنيت عن المـلام
واذا افتقـرت اليهـم
فاللوم من لغو الـكلام(٣٨)

---

(٣٧) خمسة دواوين للعقاد ط الهيئة المصرية للكتاب ص ٣٢١ .
(٣٨) ديوان العقاد ص ١٢١ .

واذا تعود الناس منك خيرا فاياك أن تخونك الظروف يوما ، فقد صار حقا لهم لو منتعته حصبوك ، أما اذا تعودوا منك شرا فأمهلتهم يوما فانهم يثنون عليك ويشكرونك :

من عود الناس خيرا طالبوه به
كأنه الدين يلوى بالمعاذير
ومن تعقبهم شرا فأمهلهم
يوما تقبل منهم أجر مشكور
لا رأى للناس فى نفع ولا ضرر
وما لهم قط من حكم وتقدير(٣٩)

ويوازن العقاد بين عطائه القيمى والفكرى الخالد ، وعطاء غيره المادى الفانى وكيف كوفىء عطاء الناس بالموازنة بعطائه فى قوله :

أعطيتهم لؤلؤا حرا فحين رأوا
صغيرة منه صاحوا : أى افلاس
وجادهم بالحصى غيرى فحين رأوا
خريزة فيه قالوا : أكرم الناس(٤٠)

ومثل هذا كثير من القصائد والمقطوعات ، مثل « الظن »(٤١) ، « سر فى طريقك »(٤٢) ، «الذم الصامت»(٤٣) ، « طباع مكشوفة»(٤٤) وغيرها .

---

(٣٩) خمسة دواوين للعقاد ص ١٦٩ .
(٤٠،٤١) خمسة دواوين للعقاد ص ١٦٩ .
(٤٢) السابق ص ٣١٨ .
(٤٣) السابق ص ٢٠٧ .
(٤٤) السابق ص ٢٠٦ .

والعقـــاد بغربته النفســـية ، ونقده الاجتمـــاعى لأبناء مجتمعه ، لا يتوقع منه أن ينتظر شهرة فى زمن أصبحت الشهرة والمشهورون فيه مواطن اتهام ، وهو الزمن الذى عناه بقوله :

صعد اللئام الى ذراه فقهقوا
ان القـــرود لبالتسلق أخـــير
وبقـــدر ما بذل امرؤ من قدره
يرقى فأكبر من تراه الأصغر(٤٥)

وهو فى البيت الأول يرســـم صـــورة للئام عصره ، وهى صـــورة كاريكاتورية ساخرة اذ رآهم قرودا يتسلقون نحو الذرى وهم يقهقهون، ولا شك فى أنه تتلمذ فى هذه الصـــورة أمثالها على ابن الرومى شـــاعره الأثير .

وفى رأى العقاد أن الدهر الذى يحيف على عظمائه ، لا يســـتحق منهم أكثر من أن ينتعلوه ! وأن الشهرة اذا غدت ســـلعة يحظى بها من يبذل لها العرض والقدر والكرامة ، فتعسا للشهرة والمشهورين :

دع الشهرة العوراء تقتاد غافلا
على حكمها يجرى وان طاش أو ظلم
اذا الدهر لم يعرف لذى الحق حقه
فللدهر عندى موطىء النعل والقدم
اذا جاز بيـــع الذكر فى شرع أمـــة
فلا كان من ذكر ولا كانت الأمم(٤٦)

أما نتائج هذه الغربة النفسية فى حياة العقاد ، فقد تمثلت ـــ بعد أن ضاق بحياة المجتمع ـــ فى فراره الى الطبيعـــة الحانية ، حيث ارتمى

---

(٤٥) ديوان العقاد ص ١١٣ .
(٤٦) خمسة دواوين للعقاد ص ٣٧١ .

بين أحضانها ليخلو الى ذات نفسه فأخذ يضرب فى صحراء أسوان وجبالها ويغيب عن نفسه فى فسيح خياله حيث الفضاء الطلق بينما كان قلبه يختنق فى حدود الموجودات فى المدن وزحام الناس .

لذلك خلع على الطبيعة احساسه وفكره ، وناجاها واستلهمها ، لأنها تمثل لديه ينبوع الشعر الحق ، ومن ثم صور مناظرها المختلفة فى قوة وصدق ، بذوق فطرى سمح ، فتحدث عن الشمس والرياض والثمار ، كما تحدث عن رقة الأنسام ، وأنغام الطيور ، وجمال الورود والزهور بشتى ألوانها ، ومختلف أشكالها :

الشمس تضحك والآفاق صافية
جلواء والروض بالأثمار قينان(٤٧)
والنسيم خفوق فى جوانبه
وللطيور ترانيم وألحان
فى كل روض قرى للزهر يعمرها
يا حبذا هى أبيات وسكان
الورد يحمر عجبا فى كمائمه
والياسمين على الأغصان ميسان(٤٨)
وللبنفسج أمساح ممسكة
كأنه راهب فى الدير محزان
وحبذا زهر الليمون يسكرنا
منهن جام خلا من مثله الحان
والليل يحييه والأطيار هاجعة
بلابل وشحارير وكروان(٤٩)

---

(٤٧) قينان : مثمر .
(٤٨) ميسان : نائم من الوسن .
(٤٩) ديوان العقاد ص ٤١ ، ٤٢ .

ويستطرد الى وصف الصبح والنهار ويتعاطف مع الطيور والنبات والنيل ، ويغنى للطائر المصرى « الكروان » غناء خالدا ويوظف له ديوانا كاملا هو « هدية الكروان » .

وللعقاد فى مباهج الطبيعة والافتنان بها مقطوعات ، وقصائد أكثر من أن نحيط بها ونظرة الى عناوين بعضها يدلنا على باقيها مثل « وقفة فى الصحراء »(٥٠) ، « الشتاء فى أسوان »(٥١) ، « البدر فى الصحراء »(٥٢) ، « الطبيعة والحياة »(٥٣) ، « الى ربه الحب — الزهرة »(٥٤) ، « على شاطىء البحر »(٥٥) « الربيع الحزين »(٥٩) ، « زهر القرنفل » (٥٧) ، « النهر النائم »(٥٨) ، « الورد »(٥٩) ، ليلة على النيل »(٦٠) ، « زهريات »(٦١) ، « الليل والبحر »(٦٢) وغيرها ...

---

(٥٠) ديوان العقاد ص ٦٠ .

(٥١) السابق ص ٧٠ .

(٥٢) السابق ص ٧٣ .

(٥٣) السابق ص ٧٤ .

(٥٤) السابق ص ٧٥ .

(٥٥) السابق ص ٧٧ .

(٥٦) السابق ص ٧٨ .

(٥٧) السابق ص ٩٥ .

(٥٨) السابق ص ١٠٧ .

(٥٩) السابق ص ١١٤ .

(٦٠) السابق ص ٢٢٦ .

(٦١) السابق ص ٢٩٥ .

(٦٢) السابق ص ٣٦ .

واذا كانت العودة للطبيعة والتعاطف معها والهيام بها من سمات الرومانتيكيين عندما فشلوا فى مواجهة الواقع فهربوا اليها والى الخمر والى النساء ، فالذى لاشك فيه أن الغربة النفسية التى كانت تعايش عواطف العقاد ، كانت أحد الأسباب فى هيامه بالطبيعة وتعاطفه مع غير الأحياء من الجمادات والحيوانات ومظاهر الكون والطبيعة .

أما النتيجة الثانية التى أفرزتها تلك الغربة النفسية فى شعر العقاد فتكمن فى احتفاله بالتاريخ واحتفائه بآثار مصر الخالدة وكأنه بعد أن ضاق صدره بمعاصريه ، لجأ الى أجدادهم يستلهم العظمة ويستمنحهم الخلود .

وقد حذق أجدادنا فى وادى النيل صناعة التماثيل ، رفعوها ضخمة مكينة يرى فى ضخامتها معنى الخلود ، وغشوا باطنها بالظلام الدامس فعكسوا على جدرانها ظلام الغيب المجهول ، وأحاطوها بالرموز والأسرار ، وها هو يقول فى « هيكل ادفو » :

دار البطالسة الكرام جلالا
زالوا وهذا مجدهم مازالا
هاتى امنحينا من خلودك نفحة
فنقول فيك من الخلود مقالا
واستفتحى باب الرموز تمدنا
بالسحر لفظا صادقا وخيالا
انى وقفت لديك أرفع أخمصى
حذرا وأخفض ناظرى اجلالا
فحنيت رأسا فى وصيدك ما انحنى
من قبل الا للاله تعالى

وذكـــرت قـــوما فيك لم يتهيبـــوا
الا عروشـــا ضخمة وظـــلالا (٦٣)

فهو يستمنح المعبد الخلود ، بعد أن دخله خاشعا يطأ الأرض بخطو لامس وحديث هامس ، وهنـــاك طاب له الخضوع فحنى رأسه اجلالا واعظاما ، وهو رأس لم ينحن الا لله تعالى وكل ذلك صادق حين يصدر من العقاد لأن هذه خلائقه وذلك تعبيره ، وتكاد شخصيته تطالعنا خلف كل بيت .

وفى هذا التيار نجـد كثيرا من القصـائد والمقطوعات التى يحتفى فيها بآثار مصر وتاريخها مثل :

« هيكل الكرنك »(٦٤) ، « على مقابر الملوك الفراعنـة »(٦٥) ، « تمثال رمسيس »(٦٦) « يوم الجهـاد »(٦٧) « عمود فرعون »(٦٨) « مدينة الشمس »(٦٩) ، « فى جانب الهرم »(٧٠) ... وغيرها(٧١) .

ومن نتائج غربة العقاد النفسية فى شعره ، عكوفه على ذات نفسه بعد أن شقى بحياة المجتمع وخاصة بعد الحـرب الأولى التى زلزلت

---

(٦٣) ديوان العقاد ص ١٤٣ .
(٦٤) ديوان العقاد ص ٢٧٠ .
(٦٥) السابق ص ٣٤١ .
(٦٦) السابق ص ١٩٥ .
(٦٨) السابق ص ٣٧ .
(٦٩) السابق ص ٣٣٨ .
(٦٧) خمسة دواوين للعقاد ص ٤٢٠ .
(٧٠) السابق ص ٣١٢ .
(٧١) انظر خمسة دواوين للعقاد ص ٢٣٣ ، ص ٤٦٥ .

القيم فى النفوس(٧٢) ، حيث أصيب بمحنة نفسية(٧٣) أثمرت مطولته الكبرى « ترجمة شيطان » التى تمثل لونا من الترفع على الناس بما تضمنته من عمق الفكر وصلابة المادة اللغوية وعنف الصياغة الشعرية، وبما تمثله من التمرد الصارخ على نظم الحكم الشاملة والمطلقة .

ونعدها من رمزيات العقاد التى يرمز بعنوانها الى الترجمة لنفسه باعتباره واحدا من النابغين والعظماء وكيف يعامل فى مجتمع لا يقدر مواهبه ، ولا يتجاوب مع قيمه الفكرية العاتية ، ولعل فى تنكير كلمة « شيطان » ، فى العنوان ما يدل على أنه واحد من جماعة أهدرت حقوقهم وضاعت مشاعلهم وسط أكداس الظلام .

لذلك جاءت القصيدة ، مصورة خير تصوير ، حالة الفنان الحر ، فى وطن تكاثرت فيه القيود وتعاقبت عليه ألوان الاستبداد .

وفى القصيدة التى لا نستطيع تحليلها لطولها وعمقها — نرى خيال العقاد يخلق هذا الشيطان فى قاع الجحيم فى وقت اشتد ظلامه ، ويصعد معه الى السماء ، ويهبط الى الجحيم مرة أخرى ، ويأذن له أن يمارس مهمته فى اغواء الناس ما استطاع .

قال كونى محنة للأبرياء
فأطاعت ! يا لها من فاجرة
ولو استطاعت خلافا للقضاء
لاستحقت منه لعن الآخرة(٧٤)

---

(٧٢) مجمع الأحياء للعقاد مكتبة غريب ص ١٦ .
(٧٣) انظر المدخل الى شعر العقاد ط (١٩٧٤) ص ٢٨٦ .
(٧٤) ديوان العقاد ص ٢٤١ .

نعم ! للأبرياء شهم الذين ينجح بينهم الاضلال ويروج الافساد، أما الأشرار فقد غنوا عن غواياتك بطبيعتهم الملتوية، والشاعر يرسم هنا صورة لبطش الحكام بمن يوالونهم ممن يودون احراجه من رجالهم ، فيأمر الحاكم أحدهم بأمر يكون فى تنفيذه ثورة الناس عليه، وفى تعطيله تمرد على الحاكم وعدم تنفيذ أمره مما يستوجب عقابه .

ومن ثم كان شديدا أمام الشيطان ، أيعصى الله فيكسب رضا الناس أم يطيع الله ويخسر الناس ، وفى كلتا الحالتين هو الخاسر الضال فكان أن أطاع ، وبدأ رحلته ببلاد الزنج فاحتقرهم وترفع بنفسه عن أغوائهم ، وطوف بالأرض حتى بحر الروم أو بحر العجم وهناك استطاع اضلال الناس بأن أخرج لهم شيئا سماه « الحق » وبسبب هذا الحق تقاتل الناس ، وفسدت الحياة فسادا مريعا ، حيث برر به كل انسان سلوكه ، فالضعيف يبرر ضعفه بأنه من أجل الحق ، والقوى يبرر اعتداءه بأنه من أجل الحق .. وهكذا وبعد أن أناب الشيطان عنه هذا « الحق » فى اغواء الناس ، خلد هو الى السكون والراحة :

ورمى أول فخ فأصابا
ودعاه الحق واستلقى فنام
وأناب الحق عنه فاستجابا
فاذا الحق لجاج واختصام

نلاحظ هنا أن الشيطان يوظف الحق ويستخدمه ، وهى رمزية تعنى الكثير فى فكر العقاد الذى لاشك فى أنه كامنا وراء الشيطان فى كل تصرف .

وهكذا يظل هذا التجديف الفكرى الهائج والقانط من الحياة والأحياء الى نهاية القصيدة التى تقع فى مائتين وعشرين بيتا .

وبعـــد ...

فان عكوف العقاد على ذات نفسه ، ومحاولته نحت هذه الصورة وأمثالها — وهى صور تنم عن عمق الفكر والتمكن من اللغة وطـرائق استعمالاتها — تعد احدى النتائج التى أثمرتها الغربة النفسية فى شعره، فابتعد عن الناس بقدر ما تحصن داخل أسوار نفسه متخذا من امكاناته الفكرية الهائلة وسائل بديلة يعايشها بدلا من الحياة والأحياء .